الصحراء

لاحمد محمد حسنين بك

افتتح المجمع المصري للثقافة العلمية مؤتمره السنوي الرابع في ١٢ مارس برآسة احمد محمد حسنين بك الرحالة المصري المشهور والامين الاول لحضرة صاحب الجلالة الملك فالقى محاضرة نفيسة في الصحراء آثرنا نشرها في ما يلي :

سادتي : طلب اليَّ ان اتكلم في بحث علمي . والبحث العلمي الوحيد الذي اظنني استطيع أن أتكلم فيهِ هو الصحراء . لكن الجانب العلمي والفني في الصحراء ضمنتهُ كتابي ؛ فلا محل لاعادته .. ولما كان في قوانين هذا المجمع الموقر ان عضوه يجب ان يلقي كل سنتين محاضرة ما والاَّ فامامهُ الباب مفتوح، ولما كنت احرص غاية الحرص على بقاء عضويتي فيهِ ، لذلك لم يسعني الاَّ ان اتحدث اليكم في جانب غير علمي من جوانب الصحراء: وشيء اهون من شيء على اي حال

فكرت اذن في ان اتحدث اليكم عن الناحية النفسية لرحلة اعتزم القيام برحلة صحراوية طويلة من اجل الكشف . فبينما هو يقوم برحلتهِ العلمية اذا بهِ يقوم — في وقت واحد برحلة نفسية . ورحلة النفس كما لرحلة العلم مراحل ؛ وتلك هي التي احاول ان احدثكم عنها

سادتي : ان شق الصحراء شيء صعب. وكشف مجاهلها شيء اصعب. يعلم الرحالة هذا كله فلم اذن ما هو صانع . ها هوذا في شغل شاغل يفكر ويكتب ويعمل. يفكر في النواحي الكثيرة التي تستلزمها احتياجاته العديدة، في رحلة تستغرق بضعة شهور ينقطع فيها عن هذا العالم المدني الذي نعيش فيهِ . ويدوّن كلَّ ما ينتهي اليهِ من المعارف عن جانب مجهول من جوانب الصحراء . ثم يأخذ في جمع ما يعوزهُ من زاد وشراب ومتاع . وهو حاضر الذهن . يقدر لكل شيء سببهُ . فهو يحرص على ان تكون عدته جميعاً في نحو بسيط ، كثير النفع ، هين الحمل . يجمع طعامه ، الضروري منهُ والكمالي، لا يفوتهُ ان يختزن حتى بضعة صناديق من الحلوى . فتلك الكماليات الشهية لا يستطيع ان يجدها في الصحراء . فاذا توفرت له كانت سبباً من اسباب رغده . يجمع عناصر فنه : ادوات الهندسة والمقاييس والرصد والحساب. تلك العناصر العلمية التي يعتمد في نجاحه على متانة بنائها ، ودقة ادائها لوظائفها . يعد الماء الكثير . ينتقي الابل الشداد . يختار الرجال البواسل ، ولاسيما الدليل ، فهو مصباح القافلة . يتخير الخيام

المريحة . ما اشده زهواً بحيته الظريفة . هي بيت العلم والقوة والفن . يهيئ ادوات الدفاع عن النفس ، وصد غارة المغيرين . فهذه بنادق صائبة المرمى . ومسدسات دقيقة الصنع . وهذا رصاص يأكل الاحشاء . وهذه سيوف قاطعة لوامع وخناجر تخرق السحر . يضيف الى ذلك كله ما يعوزه من الادوية الناجعة ، التي يسهل استعمالها ويصدق اثرها ، ولا سيما ما يختص منها بامراض المناطق الحارة ، وما يشكو منهُ اهل الصحراء

ترون الآن ان رحالتنا اعدَّ عدَّتهُ جيداً . وها نحن اولاء نراه يتخيل ويحال . يستعرض في ذهنهِ سوراً حسانًا . فساعة يرى صورة تلك القافلة الزاخرة ، وهي تشقُّ سبيلها الرملي ، فتانة المظهر ، متزنة الخطى ، يعابث نسيم الصحراء الراقص ما زينها من رحال دقت جلودها ونسيج رق حريره . وساعة يرى صورة « معسكره » وقد استقرَّ به النوى . فضربت خيامه ، ومرح رجاله ، وهو تحت سماء خيمته البديعة يكتب مذكراته ، او يفكر في غده ، او ينعم مما حمل بما لذ وطاب ، او يتحكم في الزمن بين ساعاته العديدة التي بين يديه . يالهُ من حلم سحري . انهُ ينفق غاية ما يستطيع من جهد ليستكمل عظمة هذا الخيال الذهبي . لتكون قافلته مثلاً اعلى لغيرها من القوافل . وليكون هو مثلاً اعلى لسواه من المستكشفين . ولم لا يصح ذلك وقد تزود من المادة بخير زاد واصلحه . لقد استقرَّ سلاحه المادي في يمينهِ ، فليأتين النجاح اذن عن شماله . أليس هذا منطقاً . كل شيء قد كمل وحسن . اما الطعام ، فقد تزوَّد منهُ بقدر كثير . اما الماء فقد ملأ بهِ قرباً متينة عدة ، لن تنزَّ منها قطرة ماء . اما الدليل ، فقد وفق الى رائد بدوي امين ، يقظ كالصقر ، خبير باليد كالحمامة ، لا تخطىء الى صاحبها السبيل . اما الابل فصفتها الطويل منتظم ، تتسع اذن المسير فتسير . اما الرجال ، فطائعون ، دماؤهم ملك لسيدهم وفداء . اما خيامه فرحبة ، مزودة باسباب الراحة . اذا نصبت في الصحراء ، فهي راسخة كالجبل لا ينال منها عصف الرياح . اما آلاته التي يعرف بها اسرار السماء والارض فهي خير نتاج الذهن البشري في القرن العشرين . لم يعد يعوزهُ اذن شيء . لقد حرص رحالتنا على ان يحمل معهُ حتى لباس بدوي انيق . كم اتعبهُ التأنق فيهِ . لقد صنعهُ من الحرير الاخاذ . طرزه ابدع تطريز . وشاه باجمل وشي اختار لهُ خنجراً فضيًّا . يفتن بني الصحراء . كان يتزين بهذا اللباس اذا اختلى بنفسه وكان يتندو فيهِ امام المرآة ويروح . هذا هو المظهر الذي يطالعه رؤساء القبائل . ولسوف يأتونهُ ساجدين . فهو كيِّس ، يجيد فن السياسة . ولقد حمل معهُ عدة كتب توصية الى مشايخ القبائل ورؤساء العشائر ، فهو من هذه الناحية يستطيع ان يجذبهم اليهِ ويغريهم بمبايعته سيداً مطاعاً على اهل الصحراء اجمعين . فاذا لم تجدِ السياسة ، ولا حسن القول ولا كتب التوصية فما اهون عليهِ ان يستعبدهم قسراً ، فهو يلقي في قلوبهم الرعب بما جمع من سلاح . او ليس يحمل من السلاح ما يجهلون . وما لا يستطيعون ان يأتوا بمثله اليس

معه جنده وهم اشداء . او ليس هو ايضاً شجاعاً مقداماً . لقد امن واطمأن . اذا أصابهُ ضر عرف كيف يدفعهُ ، او مسهُ شر استطاع ان ينجو منهُ . والضر والشر لن يعرفا اليه سبيلاً ، فهو يقظ حريص يقدّر رجله قبل الخطو موضعها . لم يعد اذن في الصحراء ما يخشاهُ .

تلاحظون في رحالتكم الآن ثلاثة جوانب نفسية غلبتهُ وتمكنت منهُ

اولاً — ايمانه المطلق بقوة المادة

ثانياً — حرصه على ان يستعين بهذه القوة قدر ما يستطيع

ثالثاً — ضمانه النجاح العظيم من هذه الطريق

وهكذا ترون ان صاحبكم يحاول ان يفنى في سلطان المادة ، او ان يفني سلطان المادة فيه. فالمادة شغله وهمه . مازج اثرها تفكيره . هنا لها قلبه . انتعشت بها نفسه . تأثر بالمادة كل شيء فيه . تأثرت حتى مشاعره وحواسه . تأثرت حتى هواجسه وخواطره . تأثر حتى ذوقه ومزاجه . فبدا مظهر هذا الاثر جلياً في كل خطوة من خطواته ، وشارة من شاراته ، وكلة من كلماته . هيمنت المادة على ذاته المعنوية جميعاً . ما الصحراء سوى شيء مادي . فلن يكون غزوها بغير سلاح مادي . ولقد اختار لهذا الغزو سلاحاً ماضياً ، يغري شكله بالوثوب ، ومقبضهُ بالطعن ، وحدّه بوجوب النصر المبين. ما اروع ان يكون اذن فوق بسيط الرمل. ثمّ كل شيء. لقد أصبح رب البيد ، وسيد الصحراء

ما اشد رحالتكم زهواً بنفسه . لقد تجمع رجاله حوله خاشعين . وها هو ذا يأخذ بالقلم ، وينعم النظر في خريطة صامتة بيضاء . تترجم في صمتها وبياضها عن تلك الناحية المجهولة التي لم تطأها قدم انسان بعد . على هذه الخريطة يرسم الرحالة خط سيره ، بيد مطمئنة ثابتة . ماذا في نفس الرحالة . انه يهزأ بما اصاب زملاءه السابقين من فشل . اما هو فناجح من غير شك. أتستطيع الصحراء بعد اعدادها هذه العدة كلها ان تعترض سبيله . او تحيرُ اليد ان تناهض المادة من جانب ، والعزم والعلم من جانب آخر ؟ الا ليت الصحراء تعقل ؟ اذن لعلمت ان هذا الرائد الجبار قد أعزم واحدة من اثنتين . اما ان يذلها ويدرك غايته ، وأما ان يجود لها بنفسه ، فيخولها بذلك نعمة اتساعها لعظامه ، وفخر قبولها اياه عدية خالدة. وفي ذلك شرف للصحراء عظيم

في هذه المظاهرة النفسية المتصلفة ، ، وعن هذه العوامل الباطنية الوثابة ، يرسم الرحالة خط طوافه ، وهو مأخوذ بنشوة نصر لا ريب فيه

سادتي: رحالتكم الآن في بداية الطريق ، ما اروع المنظر وابهجه . انه يرى بين يديه شيئاً عجباً. يرى تلك القافلة التي كانت منذ أسابيع حلماً ذهبياً ، اصبحت اليوم امراً واقعياً. قافلة زاخرة ، تسعى الى غاية ، وتمشي على هدى. كل شيء وفق المنهج الذي رسمه . السير هين . والرمل لين. والصحراء مهاد . والابل تخبُّ آمنة . وأحمالها في حرز مكين . ورجاله يطيعونه طاعة المولى

لصيده . اليس له اذن ان يشمخ بأنفه ، كأنه خرق الارض او بلغ الجبال طولاً

الا ما اجمل الصحراء . وأنعم ملمسها . ما أيسر مسحها . ما ألذ اللعب عليها . ذات الغلائل اللانهائية الصفراء

انها صبية منيّعة . ظبية الوقف . فرعها من ورد . جيدها من ذهب . جبينها من فرد . النظرة اليها تسبي العينين . المشي عليها يأخذ بالألباب . حياتها موسيقى وشعر . سماؤها اغان وأحلام . الاقامة فيها كالاقامة في روضة غناء . راضية تنوع . لا تردُّ قاصداً . لا تخيب ظنًّا . ان صددت اقبلت . وان أقبلت لانت . ضحيكة ذات خفر . في صوتها حنان . في رقتها لذة . في ملاحتها فتنة . في اقرائها خمرة تسكر العاشقين

هذه اذن هي الصحراء . فلئن لم يحبّه النجاح يسعى فلينتزعنّهُ من مخبئه انتزاعاً

وهكذا يقوى اعتزاز رحالتكم بالمادة ، ويشتد شعوره بنفسه ، وينمو يقينه في الصحراء. انه ليسير كل يوم بضع ساعات في جو مرح . ولذلك فهو مستبشر طروب

أتمّ رحالتنا مرحلته الاولى . وقد بدأ الآن ينشى « السريرة » . والسريرة هي ذلك الشيء المجهول ذو السر الدفين . انه اصطلاح البدو على كل مدى منبسط بين بئر وبئر ، وقدره غالباً من خمسة وستة ايام الى اثنى عشر يوماً او تزيد . فقد يأخذ الرحالة في رود هذه المنطقة الموحشة يأخذ في اجتياز مرحلته الثانية . يقضي صاحبنا اول يوم من أيام هذه المرحلة . هو يوم مشهود . يوم حافل سعيد . بلغ فيه الزهو بنفسه غايته . هو في ضحى هذا اليوم اشد خيلاء بنفسه من قبل . اذ انقطعت صلته بالعالم الخارجي . واستهلّ الشوط الهام من رحلته . ذلك الشوط المجهول الذي لم يسبقه اليه احد . القافلة تسير هانئة . ورحالتنا منشرح الصدر . لقد آمن بيسر الصحراء . فهو يتكبر ويتغنى . فبين يديه مادة قوية غلابة . وتحت قدميه مركب مهين ذلول . انروق الآن اليه وهو يسخر . هذي هي اليد التي وصفوها بانها طاغية . هذي هي الرمال التي زعموا انها آبار الموت . هذي هي الصحراء التي قالوا انها شائكة السبل . ما افكك طوافها . انها مغان ، ومراقص ، ورياض انس ولهو وجمال

فاذا انتهى صاحبنا من سخره بالصحراء بدأ يفكر في شأن رواد الصحراء . فكرة تهتف بفكرة . وخاطر ينادي خاطراً . امتلأ رأسه بالخواطر ، وفاض بالافكار . هو مشغول بأمر زملائه القاعدين . يلذُّ له كثيراً ان يذكرهم ، ويستعرض سيرهم ، ويحاول ان يقضي فيهم قضاء الحق . انهم من قبل ومن بعد ، عجزة ضعاف . انهم ، اولاً وآخراً ، ضحايا العجز والضعف. فاذا انتهى بهم الى هذا الخط التعس . وقضى فيهم ذلك القضاء الاليم ، شعر بشيء من راحة النفس ، وتمت عيناه بشيء من العجب . صحيح انه يرثي لهم . لكنه في شعوره بذلك يملكه شعور آخر اشدُّ منه عنفاً ، ذلك هو شعور الذلّ والتجني . ولعل هذا الشعور الآن هو

مبعث تلك الابتسامة الراقصة على شفتيه . هي ابتسامة سخرية فيها تيه ، وفيها اعتداد كبير بالنفس . غير انه لزام عليه — على اي حال — ان يستخلص من هذه النواحي جميعاً نتيجة ، يرتب لها اثرها بنفسه ومنطقه ، كما مهد لها اسبابها بنفسه ومنطقه . وها هو ذا يذهب ، كأنه مقتنع ان ان يقرر ان طريق الفشل وأثره ، انما سرُّها في ضعف المادة ، او في عدم استكمال عدتها كما يجب ان تستكمل لرحلة الصحراء . فلئن ضلَّ في الصحراء جوّاب ، او فشل مستكشف ، فذلك فقط لقلة خبرته بزاد طوافها المادي . ولئن كان اولئك الجوّابون الضالّون ، والمستكشفون الفاشلون ، قد تزودوا بمثل زاده ، لما ضلَّ ممن ضلَّ احد ، او فشل ممن فشل احد

قضى صاحبكم ست ساعات وهو يسير . ما زال يجد نفسه حتى لكأنَّ هذا الفضاء على رحبه يكاد لا يسعه ، وكأن الارض لا تحمل سواه . وقد اعتزم ان يسير اليوم كله على قدميه ، ليلقي بذلك على رجاله درساً مجيداً في الصبر والجلد ، وما الى ذلك من صفات البطولة . غير ان مفاجأة لم يكن ليحسب لها حساباً قد حولته من طريق الى طريق . فعبثاً حاول ان يمضي في السير على قدميه . فقد اوجعهما النعل البدوي . ذلك النعل الخشن الذي لم يألفه من قبل . تسرَّب الى نفسه شيء من الضيق . فقد ادمى النعل قدميه . او اصابتهما منه ثغور . ليمتطِ اذن جمله . بدأ يتأفف . لا يلبث بعد حين ان يملّ ظهر الجمل . ما اقبح المطيّ . احبُّ اليه ان يسير على قدميه الداميتين من ان يظل فوق جمل بطيء يمشي بسرعة اربعة كيلو مترات في الساعة . يجيء وقت الغداء . فيكون غداؤه البلح الجاف ، كالحشف البالي . لا ماء اذن ولا شواء اذ لا سبيل الى ذلك والركب يسير . ثم انهُ من تقاليد القافلة ان تناسها جميعاً يأكلون صنفاً واحداً ، لا فرق فيهم بين سيد ومسود او كبير وصغير . البلح الجاف اذن ، هو طعامه السائغ الشهي . يندُّ جمل فيختلُّ نظام القافلة ، وتضطر اعادتها الى سيرتها الاولى . تندُّ جمال أخر فتقذف ما عليها ويسوء الامر . فمن صناديق تتهشم ، الى زاد يتلف ، الى جهد كبير ينفق في سبيل لم الشعث من جديد . يتخابط جملان فتحتك القرب بعضها ببعض ، تتمزق جلودها ، ويضيع من الماء شيء كثير . وهو اتفهُ ما يحرص عليه من زاد . غير ان يحجب نور الشمس ، فيسقط في يد الدليل . نرى رحالتنا لا يأنس لهذه المظاهر . قلَّ ابتسامه ، وساد الركب سكون ، لكن هذا كله شيء لا يصح ان يحتمل . هو مناوشة من الصحراء بسيطة فليتقلسف الرحالة ، وليحاول ان يتقبل هذه المناوشة بقبول حسن

تفجأه عاصفة . مناوشة اخرى . ولكن ماذا تستطيع العاصفة ان تفعل . انها تفكك وحدة الركب ، وتعوق السير ، وتعطل ادوات فنه ، وتتعب رجاله . وتنال من ابله : هذا كل ما تستطيع العاصفة ان تفعل . وهذا كله يمكن ان يعالج . صحيح انهُ امر سيء ، غير انهُ ميسور على اي حال في سبيل المجد ليست تكاليف العلا شاقة مضنية

لم تر ان المجد تلقاك دونهُ شدائد من امثالها وجب الرعب

ولئن جابهتهُ الصحراء بتلك المشقات الشداد فهو اهل لمقاومتها ، والاستشهار عليها

لولا المشقة ساد الناس كلهم الجود يفقر والاقدام قتال

وانّي لهذه الصعاب ان تنال من نفسه وقد هيأها لانتزاع المجد وان استعصى سبيله وعزّ مرامه

ذريني انل ما لا ينال من العلا فسهل العلا في السهل والصعب في الصعب

نرى رحالتنا يكثر من الفلسفة . هو في نزاع بين قلبه وعقله . وهو من أثر هذا النزاع غير مستقرّ . فساعة يحس قلبهُ شرًّا ، وساعة يقدر عقله خيراً . ولذلك فهو حيناً قلق ، وحيناً مطمئن

يلقي الرحالة عصاه . فتزأر به عاصفة من جديد . عاصفة تملأ الفضاء : زاحفة كأنما تريد ان تنسف الارض ومن عليها . صوتها يشبه الولدان كأنهُ صوت الفناء . ماذا تفعل العاصفة في هذه المرة . . تقوض خيامه ، تهشم بعض ادواته العزيزة التي يعرف بها اسرار السماء . اما ابله ، فقد نفق اقواها ، وهو لا يدري لهذا سبباً . اما ماؤه فقد ذهب اكثره ، لامور لم تكن في الحسبان . أما دليله وليد البيد ، ابن الصحراء ، العليم بأسرارها ، الخبير بمسالكها ، مصباح القافلة ، ذراع الرحالة الايمن ، أما دليلهُ هذا : فقد جحظت عيناه . ملأه الهلع . ليس امامه سوى التسبيح للموحش الرملي . ليس امامه علم يهديه ، ولا صوى يسترشد بها في طريقه . اذا قيل له اين نحن . . هز كتفيه ، وقال بصوت محتبس ، « الله اعلم » . واذا قيل له الى اين اشاح بوجهه . وقال في لهجة حيرى « الله اعلم » . فكلمة في الحق غير مناسبة

رب عاصفة يقل عمرها عن ثلث ساعة ، تسقط على رأسه خيمته الظريفة ، فتحطمها وتكاد ان تحطمه . رب ميل قليل عن خط سيره ينتهي به الى فاجعة اليمة . قد يخونه رجاله فيتمردون عليه ، او يأتمرون به ، فيسوء المصير

قد لا تتألب عليه هذه النوائب جميعاً في يوم واحد . ولكنهُ على اي حال هدف شرها بين يوم ويوم ، او اسبوع واسبوع . والآن فاين رحالتنا . واين عدده . اما هو فتحبث به اكفُّ الصحراء . واما هي فقد ذابت بين يديه . كل شيء نذير شؤم . في عواء الريح وعيد بسوء المآب . في صفير العاصفة صور متباينة للردى . فهو كيفما ادار لحاظه لا يجد امامه الا الموت او الفشل وليس له معدى عن مجابهة احدهما . اما الموت فباسط يده ، يريد ان يختطفه ، او فاغر فاه ، يريد ان يبتلعه . واما الفشل فصخرة عبوس ، تحطمت عليها مطامعه ، مسخ ساخر يمثل له عودته مطرق الرأس ، يحاول ان يتجنب الناس او يتجنبه الناس . مسخ ساخر يمثل له الشماتة به ، او انفضحك منه : او العطف عليه ... شياطين الموت ترقص حوله . اشباح الفشل تسعى اليه . الموت او الفشل ... ليختر اذن منهما ما يشاء . وهما أمران احلاهما مرٌّ . وطريقان اهونهما جمر . وقد يكون للموت احلى الامرين مذاقاً . وقد يكون الجمر ابهج الطريقين سبيلا

مع هذا فما موقفه من ذلك الموت الذي يطالعه الآن . لقد صح منه العزم حين حاول شقّ الصحراء على ان يهب لها حياته اذا عز النصر عليه . كان ينتابه في احلامه الذهبية بين حين وحين حلمٌ بعيد — هو حلم الموت . وهو حلم وان ساءت طلعته ومرّ طعمه ، فهو في الواقع عذب مستساغ . لانه اولاً وآخراً في سبيل المجد والعلا . اما الآن فلم يعد ذلك الجوّاد الذي يهب نفسه عن طيب خاطر ؛ ولكنه اصبح ذلك الذليل الذي تنتزع منه حياته عنوة وقسراً

ومهما يكن من شأن موقفه هذا ، فانهُ ليس سوى موقف المستضعف الجزع ، يتحايل على الموت ؛ ويضنّ بحياته على الصحراء . وشتان بين موقفه هذا وموقفه بالامس القريب — حين كان يستهين باخطار الصحراء وحياته جميعاً

لكن شيئاً واحداً هو الذي يشغله الآن . كيف صحّ ذلك كله . اليس اولئك رجاله . اليس هذا دليله . اليست هذه عدده . اليست هذه ابله . اليس هذا عامه . اليس هذا سلاحه . اليس هو هو . اليست هذه جميعاً أسباب جهاده . ما الذي كان ينقصه . اليس قد استكمل عدد الجهاد كلها . كذب ظنه ، خاب تدبيره . فكأنما كل عدة من عدده قد انقلبت سلاحاً صوّب الى صدره . وكأن كل مادة من مواده قد اصبحت ثعباناً يتلوّى حوله

هنا يجلس رحالتكم «المقدام انياسل» الخبي بعدته وزاده ، القوي بادته وبأسه ، المستعين بعلمه وفنه ، يجلس رحالتكم الآن وقد تمزقت ثيابه ، واغبرّ لونه ، وساء امره ، وذهب الاسى بنفسه كل مذهب . ادوكته هذه المحن جميعاً فوقعته في فخ الصحراء . كادت له الصحراء ، وبيتت له الغدر كأنها غدت ذئباً . وكأنه غدا حملاً . وقد اخذ الذئب يداعب لعبته اول الامر

اهذه هي الصحراء . . اتلك هي الغانية التي كان يتشهاها . اتلك هي العادة التي شغف بها حبًّا . اتلك هي الطيبة القنوع التي كان يغنيها على قيثارة مطامعه ، فترقص له في غلائلها الصفراء رقصة الخشوع والطاعة . . ما بالها غضبت عليه واستبدّت به

اليست هذه هي الصحراء التي كان يتشبب بها بالامس ، كما يتشبب ذو المال بغانية تلتمس نعيمها في رخائه . ما بالها اليوم تصدّ عنهُ ، كأنها غانية السوق . تلتمس نعيمها في المال والغنى ، وكأنهُ العاشق المضنى بجهده الفقر

أليست هذه هي الرمال الذهبية التي كانت تسقيه بالامس خمر الآمال . ما بالها اليوم اصبحت في صفرتها كصفرة الحنظل ، واصبح سقياها مريراً كماء الموت

أليس هذا هو المنبسط الفسيح الذي كان يطلق فيه آماله ترتع وتلعب ، فتعود اليه حاملة آمالاً جديدة حلوة كالشهد . ما بال هذا المنبسط الفسيح صغر به اليوم وضاق ، ودقّ في صغره وضيقه حتى غدا طوقاً حديديًّا يغل رقبته ويضني حلقه الجاف

أين النجاح الذي كان يؤمن بانهُ سيجيئه يسعى ، والا انتزعه من مخبئه انتزاعاً

أترون اليوم كيف يستجديه ، في ذلة وضعف ، كما يستجدي المغرم المضنى اجهده التقرء نظرة ، أو ابتسامة ، او كلمة ، من غانية السوق ، تلك الغانية اللعوب التي لا تلتمس نعيمها الا في المال والغنى . أين الفوز والنصر اللذان كان يؤمن بانهما في قبضة يده والا اغتصبهما من يد الصحراء اينما وكيفما يشاء. أترون اليوم كيف يسألها الصحراء، يسألها يداً قاسية باطشة ، تحطم من آماله وكبريائه اينما وكيفما تشاء

أين ورد المطامع. أين أقواس النصر أين سحب المجد. أين العود المظفر. أين هتاف المجامع العلمية ان ذلك الحلم الشعري قد انحدر من فوق كتفي رحالتنا وتجلى لهُ اليوم فقط انهُ قبضة من الهشيم

***

سادتي : ترون كيف انعكست آية المادة . انظروا الى صاحبكم . لقد هوى من سمائه الى مستوى عبيده مرغماً مضطراً ، مكرهاً لا بطلاً . لم يعد يثق حتى بحقه في اصدار الاوامر فان كانوا ما يزالون يسيغون سيادته فربما كان ذلك فقط لجلد طبعه ، وقدرته على الاحتمال ، وما الى ذلك من صفات يضعها اهل الصحراء في المنزلة العليا من فضائل الرجال. ما اكثر خدع المدنية . قد فني بين جنبي رحالتكم ذلك الشعور الذي كان يسمه انغام المجد كلما نظر الى ما أعد من ادوات ، واعتز بما وسع من علم ، وسحرته لذة النصر التي كان يتخيلها في سلطان المادة

ضاقت نفسه بالصحراء. ولم يضق صدر الصحراء به. انه مهموم . وفي الصحراء ضحوك . ها ان صوتاً قوياً يقرع سمعه . انه سخرية الصحراء . شعور عنيف يهزه هزاً . انه أرسلطان الصحراء

يتغير الآن شعور رحالتنا فتلمس في هذا التغير فارقاً كبيراً ، ذلك الفارق العجيب الذي يفصل بينه اليوم وهو فريسة هذا الموقف المشئوم، وبينه بالامس وهو يخطو في الصحراء خطواته الاولى . فقد اخذ يحقد على الصحراء ، ويلعن اليوم الذي وطأتها فيه قدماه . ولكن ماذا يجدي الحقد واللعنة . اليس خيراً له ان يفكر في طريق من طرق الخلاص. فليفكر اذن وليكثر من التفكير . فاذا تكون النتيجة . انه كالطير في القفص . هو سجين الرمل والرمل حارسه. وقد بدأ الليل يسدل ستاره الحريرية السوداء ، وينثر في السماء نجومه الصغيرة الراقصة ، ويقطع اشواطه في هذا الفضاء اللانهائي وئيداً بطيئاً كسير القافلة . ليفكر اذن في صمت هذا الليل الرهيب فيعود بعد جهده ليسأل نفسه : ترى لو انه اتخذ عدداً اقوى مما اتخذ ، وسلك سبلاً اين مما سلك ، اما كان يمكن ان يتجنب ذلك المصير المشئوم الذي صار اليه . ولكن اكان يستطيع ان يصنع غير ما صنع . لقد امتحن بأحدث اسباب العلم، وتزود بأنفع الثمرات الذهنية . ما كان يستطيع في الحق ان يصنع غير ما صنع ، وهو بعد كائن بشري ، لا تعرف المعجزة سبيلها اليه ، ولا يعرف هو سبيله اليها

على انهُ مع هذا كله يحس بعاملين عنيفين يتناوبانه . عامل العناد يأبى عليه ان يشهد

بعجزه . وعامل الجهاد يزين له المضي في المقاومة . يظل رحالتنا نهب هذين العاملين ، فما يكاد يستوحي وحيهما ويتأثر بأثرهما حتى يسمع صوتاً خفيًّا ، ضحكة ماكرة من صوت الصحراء ساء سبيلاً . كل شيء تلف او تحطم او ضاع . صناديقه كأنها ركام . عدده اصبحت لا تغني شيئاً . سلاحه لا فائدة منه . ابله برح بها الاعياء والعطش . رجاله اصبحوا كالاشباح من فرط ما ناهم من مشقة الجوع والعطش والنصب واليأس . دليله ضجر متبرم . كادت رحالتنا الصحراء ومكرت به . عبثت حتى بكراسة مذكراته . سلبته حتى غيون دخانه . ضنت عليه حتى بلذة الشبع . ما اشبهه بالقائد الذي خسر المعركة . فهو آمر الى انقاضه لا يدري ماذا يصنع . يهوله مشهد الضحايا يروعه مشهد الخراب . يجزع لمقدم الغد . في ذمته تبعة هذا جميعه . أما هو ، فرهينة ينتظر . فاما الاسر ، وهو ذل . واما الفرار ، وهو خبل . وأما قتل النفس وهو جبن وخور

***

سادتي : ان غير المنظور هو الذي غالباً يقع

والدهر يعطي الفتى ما ليس يطلبه حيناً ويحرمه من حيث يطمعه

الا ترون كيف اصبح امر نجاحه اليوم سراباً كما كان امر الفشل عنده بالامس . كان الفشل ابعد ما يذهب اليه . كان لوناً من ألوان المستحيل . كان آخر ما يجيز لنفسه ان يفكر فيه . فكأن الشمس طلعت اليوم من المغرب . لقد خاب الظن . اصبح النجاح ابعد ما يذهب اليه . اصبح لوناً من ألوان المستحيل . اصبح آخر ما يجيز لنفسه ان يفكر فيه . . . صد العاصفة بالكفين اهون منه

اكتنفهُ الظلام . غيم على نفسه ، غيم على رأسه ، غيم على عينيه ، ظلام اليأس والحيرة والفشل . أين هو اليوم الذي استهل فيه رحلة الصحراء ، وهو يحيي مودعيه في شيء من التواضع . فلولا عدم اللياقة لصرح لهم بما تجيش بهِ نفسه ، من نصر محقق ، ونجاح مؤكد ، وعود مظفر . لقد اصبح اليوم لا يطيق ان يذكر شيئاً من ذلك . كان اذ ذاك يغمره النور ، نور في نفسه ، نور في رأسهِ ، نور في عينيهِ ، اما اليوم فله من شأنهِ ما يغنيه عن ذكر ذلك . ففي ذكره ألم ، وحسبه ما يعاني من ألم . وفي ذكره احساس بخيبة التقدير ، وحسبهُ ما يتجرع من غصص الهزيمة

هذا زاده المادي . كان يؤمن من قبل بانهُ مفتاح النجاح . وقد ذاب اليوم هذا الزاد ، فتحطم ذلك المفتاح المسحور . لئن كان صادقاً في تقديره ، فما الذي اذاب الزاد ، وضيع الامل ، وحطم المفتاح وان كان غير صادق في حسبانهِ ، فاين اذن يوجد هذا المفتاح المفقود ، واين اذاً السبيل اليهِ

جمد ذهن صاحبنا . تعطل تفكيره . كاد يحترق مخه ، وتتمزق عروقه . كاد يهذي حتى انهُ ليتخيل الصحراء امتلأت بالذئاب العاوية . وعواصفها اصبحت نواقيس الموت . ها هو ذا يغمض عينيهِ . ويعتمد رأسه بين يديه . كأن صراعاً ألمَّ بهِ فكأنهُ في غشية ما لها صحو

سادتي : الى هنا يصح ان نعتبر رحلتنا قد اجتاز مرحلتها الثانية . والى هنا ترون كيف ذاق من الالم امره . ومن الذل اوجعهُ ، ومن الهوان غايته حتى كاد ينتهي آخر الامر الى غشية النفس . غير ان للصحراء ايها السادة تأثيراً خارقاً في جسم من جابها وفي عقله وفي روحه . فهي تصقل جسمه وتجلو عقله ، وترتفع بروحه يوماً بعد يوم ، الى مراتب ما كانت لتدركها لو ان صاحبها لم يحاول ان يتخذ له سبيلاً في جوف الصحراء . ولئن يتقبل جوّاب الصحراء ما تمتحنه به من عسر وشدة وألم بقبول حسن ، فما ذلك الاّ لانهُ ادرك آخر الامر ان قسوة الصحراء ليست سوى شيء من قسوة الام الحنون ، تنال بها ابناً عاقاً تحبهُ وتكلف بهِ ، في سبيل تربيتهِ وتهذيبهِ وشد ما ادّبت الصحراء رحالتنا ، وأحسنت تأديبهُ . فبدأت تنظفه من دنس المجتمع ، وتطهره من ادران الحياة ، وتنزع من صدره وسوسة الشيطان . بدأت تغسل عنهُ قذارة الجسم ، ودنس الروح ، بدأت تلهم نفسهُ فلسفة صوفية وتفيض عليها بهذه الفلسفة العالية . ففيم يفكر اذن . . ولعلنا نذكر فيما كان يفكر بالامس

اولاً — قبل ان يعدعدتهُ . ثانياً — وهو يعدعدته . ثالثاً — وهو في مرحلتهِ الصحراوية الاولى لم يكن اذ ذاك ليفكر في غير المادة . وقد تأثر بها ، كما سقنا ، كل شيء فيه حتى اخلاقه وحتى منطقهُ واسارير وجههِ . كان يرى انها الاداة الفعالة لما يريد . اما الآن فانهُ يفكر في شيء آخر : ذلك ادب الصحراء ، وبهِ يستهل مرحلتهُ الثالثة

أخذ هذا التفكير الجديد يحتويه ويؤثر فيهِ . أخذ يؤثر في روحه ونفسه . يؤثر في كل شيء حتى اخلاقه . وحتى منطقه وقسمات وجهه . وهنا فقط يدرك ان اداة المادة ، تلك الاداة المغرية التي كان يؤمن بانها الفعالة لما يريد ، انما هي حقاً تلك الاداة التي لم تفه شيئاً حين تورط في غير ما يريد

وكذلك رويداً رويداً تسمو الصحراء بمشاعره واحساساته الى العالم العلوي . وكذلك رويداً رويداً تفنى المادة ، ويفنى الجسم . ولا تبقى الا قوة الروح تستيقظ فوق هذا الفسيح اللانهائي الرملي . وثم تبدو له الصحراء في صورة صبية وديعة ، في سذاجتها رحمة ، في انوثتها طهر ، في ظرفها نسك يلذ العابدين . وهنا تداعبه الصحراء كما تداعب هذه الصبية الصغيرة الطاهرة ناسكاً صالحاً ، مداعبة تقية كمداعبة الابرار الخيرين . فيرق لها ، ويحنو عليها . يعفو عن هفواتها ويغفر لها اخطاءها وما اجدر بالمغفرة اخطاء الصبايا الطاهرات

ها نحن اولاء نراه يشعر بشيء جديد . تشعر روحه بالصفاء يسري اليها شيئاً فشيئاً . وتشعر نفسه بالسكينة تنساب انها قليلاً قليلاً . فاذا انتهى الى هذا الحظ ، بعد تلك الساعة التي عافت فيها نفسه كل شيء ويئست من كل شيء والتي تركناه فيها مغشيًّا عليه . هنالك — ولا غرو — تنبسط له يد الرحمن ، وتتداركه عناية الله . فيؤمن بان القوة التي تقهر

الصحراء ، انما تسكن السماء . ثم يأنس بعد وحشة ، ويستبشر بعد قنوط ، ويهتدي بعد حيرة ، ويحيي بعد موت. ثم يشعر بشيء من لوم الضمير : أكان على حق حين اعتمد اولاً وآخراً على غير الله . أكان يجوز له ان يستعين بعدده وآلاته كل الاستعانة ، قبل ان يستعين بقدرة الله كل الاستعانة ، «وهو جل وتعالى خالق العاملين» ، وباعث الحياة والموت فيهم من بدو وحضر عناية الله اذن تحرسه ، ويد الله اذن تهديه . فاذا يقول اليوم ، وكيف تبدو له الصحراء. حقاً ان الصحراء هائلة ، ولكن عظمة الله اشد هولاً . وحقاً انها قاهرة ، ولكن بأس الله اشد . وحقاً انها رائعة ، ولكن جلال الله اروع . غير الايمان قلب رحالتكم . والايمان نور وقوة وتوفيق. نور يبدد ذلك الظلام الحالك الذي غشى بسيرته واكتنف نفسه ، وخيم على ذاته المعنوية كلها ، نور الهدى والرشاد والحق . وقوة هي قوة الروح المعنوية المستمدة من فضيلة الانس بقدرة الخالق ، وادراك جانب يسير غاية في اليسر من عظمتها القدسية ومشيئتها الكبرى . ومن ذلك النور الذي ملأه ، وتلك القوة التي اصبحت هي وحدها عدته وزاده ، لغا التوفيق ، التوفيق باطمئنانه الى القضاء والقدر ، وباقتناعه الصلب القوي، وارتياحه الشديد الفياض الى ان الله مصيره وغايته ، ولله وحده الامر جميعاً. ولذلك فصاحبكم اليوم مطمئن النفس. ازداد حبه للصحراء ، وشغفه بدرس مناكبها. فكأنما خلق اليوم خلقاً جديداً. ولا غرو ، فقد اعاد الايمان الى نفسه ذلك العزم الثابت الذي اوهنته المشاق والمتاعب ، وتلك الارادة الصلبة التي ألانها كلُّ ما استهدفت لهُ من عوادي الصحراء . كأنما خلق اليوم خلقاً جديداً . ولا غرو فقد بعث الايمان في نفسه سائر تلك العوامل الباطنية الوثابة التي استحثته من قبل على رود الصحراء ، وكشف مجاهلها ، وبلوغ غايته منها . بعث الايمان في نفسه سائر تلك القوى المعنوية في نمو اصلب طبعاً ، واشد حالاً مما كانت عليه بالامس ، حين شرع يستهل رحلة الصحراء . سلب الايمان من جوف الصحراء ، كلما تعتدُّ به من وعيد سيء ونذير مشؤوم ، فلم يعد في ظلام الصحراء ، ولم يعد في ظلام الحياة ما يمكن ان يشفق على نفسه منه ، اذ قد آمن اليوم شديد الايمان ، وعلم علم اليقين بأن ما تكنه الصحراء من اهوال واخطار، ويضمره الغيب من شر وسوء ، وتستهدف له مصائر الناس من خير ومكروه ، انما هذا كله رهن مشيئة الله ... وها هو ذا يسدر في عمه عن طبيعة هذا الايمان الراسخ الشديد . فهو ينفق اقصى ما يملك من جهد ، ويبذل غاية ما يستطيع من حيلة في سبيل المطلب الذي اخذ نفسه به . اما النجاح وغير النجاح فلم يعد امرهما في يده ، ولكن امرهما جميعاً في يد الخالق وحده . سرت فيه تلك الروح القوية ، وانوحي اليه بوحيها الصادق ، فأخذ من جديد يجمع شتات قوته المعنوية ، ويلم شعث عدته المادية ، وانطلق يستحث قافلته على المضي، ويملأ نفوس رجاله بأمر القضاء والقدر ، وفي ذلك لذة لا يشوبها الدنو من الموت ولا الموت نفسه ايضاً

انطلق اذن يمضي في قافلته يسوقه روح معنوي شجاع رشيد ، وانطلقت القافلة تسعى من جديد في مثل النشاط الذي بدأت رحلتها به بعد ان كادت تجهز عليها عوادي الصحراء احيازاً. انطلقت القافلة يحدوها البشر والتفاؤل . وانطلق الرحالة من جديد الى الصحراء والى عيشه بينها : اولئك البدو البواسل الشجعان الذين ما يزالون بني الفطرة لم تستطع ادران المدنية ان تزحف اليهم . ولم يفكروا بعد في ان يزحفوا اليها . فلنقف معهُ لحظة لنرى حظ رجاله عنده بعد ذلك التطور الروحي الجديد الذي احتواه . لم يكن رجاله اولئك من قبل سوى عنصر من العناصر العدة التي هيأها لينال بها مطلبهُ في الصحراء . لم يكن رجاله هؤلاء سوى اداة من الادوات الكثيرة التي اعدها للبطش برجال الصحراء . اما الآن فقد شعر بانهُ منهم وانهم منهُ . شعر بانهم جميعاً أسرة واحدة . فهو يحزن لحزنهم ويفرح لفرحهم . ولا يهنأ بعيش الا اذا كانوا هانئين . وقد ثبت له الآن ان فلسفتهم في الحياة اجدى وأعمق من فلسفته . وان في بساطة عيشهم توفيقاً لم يدركه بعد . وهنا يروقه ان يقبس من اخلاقهم ، ويتزود من طباعهم . فقد رآهم أهل ايمان وفضيلة ورجولة . فالبدوي ، في الحق ، مثل من الامثلة الحسنى للرجل

ارأيتم الآن الى رحالتنا وهو يتفلسف . انهُ يتفلسف في شهوة الدنيا ، ومطامع الناس بعد ان سمت به حال نفسية . فصغر في عينه عراك الحياة . صغرت الصعاب التي لاقته ، والصعاب التي تنتظره . هانت عنده مطامعه — حتى مطمع الثروة العلمية المحرمة ، التي قام برحلته في سبيل قطفها . هان عنده حتى الموت في ابشع صورة من صوره . . ذلك كله صغر عنده شأناً واخذ يفنى ، شيئاً فشيئاً ، في روعة الصحراء وجلال الله

صاحبكم يشعر بقوة معنوية . فقد انتهى ، أيها السادة ، من هذه الرياضة النفسية الى نتيجة لم تكن منتظرة ، ولا سيما بعد ان ذاق من مرّ الصحراء ما ذاق . لم يعد رحالتنا يخاف الصحراء . لم يعد يخاف فيها ان يجوع ، او ان يظمأ ، او ان يضل ، او حتى ان تبيعه بحيالها قبراً من قبورها المنثورة في كل مكان . فاذا انتهى الى هذه النتيجة بدأ يشعر بأنها بدأ يشعر بسلطانه ينبسط على الصحراء . ولكن ما ابعد الفارق بين هذا السلطان الذي يشعر به وذلك الذي شعر به في بداية رحلته . فشعوره بالسلطان الاول انما هو شعور بسلطان المادة . والمادة قد خذلته . اما شعوره اليوم بهذا السلطان الاخير ، فهو شعور بسلطان الروح ، والروح قد صدقته

ما أعجب اسرار الصحراء . انها تحطم في رائدها معقل مطامعه ، ذلك العش المرع يسع الدنيا وما فيها . ذلك الفم الجائع كلما اعطي من شيء ، ازداد جوعاً فقال « هل من مزيد ؟ » . ما اسرع ان تكسر الصحراء شكيمة جوّابها ، وتذل عنقه وترغم انفه . ما اسرع ان تلقنه درس

الحكمة . اذ تبين لهُ التيار الصادق لمرء وافعاله ، والقيمة الحقة للرجل واخلاقه ، والميزان العادل للانسان وكتاب حياته . لسنب الصحراء رائدها كل احلامه الدنيوية ، تلثم كل ثمرات مطامعه الانسانية . غير انها على ذلك منصفة عادلة . لا تدع رائدها من غير عوض . فهي تجزيه الجزاء الحسن . تهب له سكينة في الصدر . وطمأنينة في النفس . وايماناً في القلب. تهب له هذه الخيرات هدية طاهرة وخالدة لا تفنى ، جديدة لا تبلى ، مصونة لا تنال منها حياة المدنية حين يعود اليها اي منال . تلك الحياة التي عبثت بحقائقها شهوات النفس الجامحة ، ومسخت معه فضائلها مطامع الانسان الكاذبة

أيها السادة : اتمَّ رحالتنا رحلته . وقد يكون توفيقه العلمي اقصى مما كانت تذهب اليه احلامه وهانحن اولاء نعودمعهُ الى بلده . فنرى حفاوة كبرى ، تنشط في درس اكتشافه المجامع العلمية . ولكن ماذا في نفس رحالتنا .. انهُ بعيد عن هذا كله . يكاد لا يشعر بحفاوة المحتفين به . يحس بانه غير أهل — من هذه الناحية — لهذا المديح جميعاً

فلقد استهلَّ الرحلة ، وكانت هذه الناحية العلمية غاية المنى ، كان يؤمن بان ما جمع من اسباب المادة هو مفتاح النجاح ، فلم يكد ينحدر الى جوف الصحراء حتى آمن بشيء آخر ، آمن بان عدته المادية لن تتقدم من امره ولن تؤخر ، وان ما وصل اليه ليس نجاحاً ولكنهُ توفيقاً ، وانهُ ليس ثمرة جهاده الشخصي ، ولكنهُ اثر من عناية الله

وما كان لنجاحه العلمي هذا ان يزيد في ايمانه وقد قدر له التوفيق : كلاَّ ولن يكون لفشله العلمي ان ينقص من هذا الايمان اذا كتب له ان يفشل ، فابتغاء وجه الله وحده هو الذي يصبح وجهة وطلبة كل من كتب له ان يرود الصحراء ولاسيما في سبيل العلم

والآن وقد صغر في عين رحالتنا نجاحه العلمي ، وآمن بانه لم يكن شيئاً ذا خطر ، تحقق ايمانه بانه لا يستحق ما أُغدق عليه من مديح ، وان قيمة هذه الثروة العلمية لا تزيد عن قيمة تحفة من التحف التي اتفق له ان يعثر عليها ، واستطاع ان يعود بها الينا بها

انه مأخوذ اذاً بلذة روحية هي غاية مطاف روحه . تلك الخاتمة التي وفق اليها في مجاهل الصحراء . فحين ضلَّ عقله اهتدت روحه . اهتدت الى سبيل علوي ، تبتدىء في نهايتها طريق الله

ثم ها هو ذا صاحبكم يفكر في الصحراء من جديد . ولقد انتهى به تفكيره الى مفارقة عجيبة ما اتفه رحلة الصحراء بالقياس الى رحلة الروح . كم يود لو ان رحلته الروحية كانت نتيجتها دانية القطوف كرحلته في سبيل العلم

ولعلَّ هذا هو السر في ان كل من راد الصحراء مرة لا يستطيع ان يصبر عنها ، ولا يملك الاَّ ان يعود اليها ، عله يوفق من طريق رحلة العلم ، الى اقصى ما يستطيع ان يدرك من رحلة الروح ، وهو الدور من فاتحة الطريق الى الله